مقتطفات مترجمة من كتاب

Mark Terkessidis / Tom Holert
Fliehkraft
Gesellschaft in Bewegung – Von Migranten und Touristen
Kiepenheuer & Witsch Verlag
Köln 2006
ISBN 978-3-462-03743-2

الصفحات: ٩– ١٦، ٥١ – ٥٧

مارك تركيسيدس / توم هولرت
قوة الهرب
مجتمع متحرك – عن المهاجرين والسياح
دار كيبنهوير وفيتش

ترجمة: د. علا عادل

دار كيبنهوير وفيتش 2006 ©

فهرس المحتويات

مقدمـــــــة

١- رحلات المهاجرين.

٢- أماكن الإقامة المؤقتة.

٣- سلسلة الحالة الوقتية.

٤- إجازة فى بلدك.

٥- يوطوبيا السياحة وواقعها.

٦- الحياة فى قرية سياحية.

٧- المدينة السياحية.

٨- الهجرة والسياحة والحق فى المكان.

هــوامــش

فهرس الصور

مقدمة

ليس هناك سوى هذا العالم هنا وفى أى مكان آخر، كما هو العالم هنـــا، ولا أحد يصل إلى أى مكان.

جيورجوس سيفيريس

فى مايو ٢٠٠٦ رست سفن عديدة على جزيرة تناريف وعلى متنها لاجئـــون. وكانـــت قوارب الصيد الخشبية قد قطعت رحلة طويلة لتوها، من سبعمائة إلى ألف ومائة ميل بحـــري. كما كانت تلك القوارب التي يطلق عليها الأسبان اسم "كايوكوس" قـــد انطلقـــت مـــن ســـواحل موريتانيا والسنغال وهي تحمل ركاباً من جنوبى إفريقيا، وكان الجانب الأعظم من الرجال الذين هم فى الغالب من الشباب، ممن اجتازوا خطر العبور، قد وصلوا إلـــى مرفـــأ مدينـــة لـــوس كريتيانوس، تلك المدينة التي يقضى فيها الناس العطلات، والتي تعد ملتقى حركة الـــسفن بـــين جزر الكناري.

إن لوس كريتيانوس هي مصب بلايا دي لا امريكا، مركز الـــسياحة الإجماليـــة إلـــى تناريف، فالمكان إذن ينمو بشكل ضخم وسريع؛ حيث ترى مواقع بناء فى كل مكان لتنشأ فنادق ومجمعات سكنية وشقق لقضاء الإجازات؛ بل إن الشواطئ الجديدة تختـــرق الأرض، وتـــسخر الطبيعة بأكملها لخدمة السياح الذين يرغبون فى قضاء أوقات فراغهم فى بيئة خيالية.

ولكن هؤلاء الأشخاص الذين يقضون إجازاتهم شاركوا فى قدر "أفراد القوارب"، حيـــث تدافعوا عند نهاية حاجز الميناء الذى دبت فيه الحياة، عند الشارع الذى يطل على موقع الحـــدث فى مرفأ العَبّارات، وتجمعوا لكي يلقوا نظرة على الوافدين الجدد إلى جنـــة الإجـــازات. لكـــن الشرطة أبعدت هؤلاء المهاجرين ونقلتهم إلى معسكر غير ظاهر عند مدينـــة ســـانتا كـــروز،

عاصمة تناريف. بل والأكثر من ذلك أنه عندما كان السياح يتجاذبون أطراف الحديث كانوا يرون أن مصير المهاجرين يمكن أن يتسبب فى الإزعاج لنفس هؤلاء السياح على المدى الطويل.

هل يعد ذلك الموقف فى لوس كريتيانوس بمثابة الصدفة البحتة؟ عندما بدأنا نشغل أنفسنا بعلاقة الهجرة والسياحة، كانت ردة فعل الأصدقاء والمعارف فيها دهشة واستغراب، حيث لم يكن هناك من يرغب فى الاعتراف بوجود ارتباط بينهما. وقد رأى البعض أن الربط بين رحلات المهاجرين ورحلات السياح أمر يثير السخرية. ويعد مثال أفراد القوارب من الأفارقة السود الذين يخاطرون بحياتهم فى محاولة الوصول إلى مراكز السياحة بجزر الكنارى، بمثابة التأكيد لهذا الشك، ألا يفر الناس من جوينا – بيساو، وسيراليون أو من الكاميرون بسبب الفقر وبسبب انعدام المنظور على أراضي الاتحاد الأوروبي، بينما يصل الراغبون فى قضاء الإجازات من ألمانيا وإنجلترا أو من فرنسا إلى الأطراف البعيدة على متن الطائرات النفاثة، كى يسبحوا فى نفس المحيط الأطلنطي الذي يخاطر فيه اللاجئون بحياتهم؟

إن الشك الكامن وراء مثل هذا السؤال مكفول تماماً ولكنه لا يبدو لنا مشروعاً فحسب، بل إنه مميز للغاية. فهناك احتياج عام لفصل المجالات. حيث نصطدم بهذا الاحتياج لدى الدولة، بل وعند الأفراد كذلك؛ فالأماكن التي يتحرك فيها المهاجرون وتلك التي يقصدها السياح لا ينبغي ولا يصح أن تتلاقى أو تتشابك. ونحن نحدس أن الأمر كذلك ليس لأنه يتعلق بأماكن أو مساحات جغرافية أو طبيعية فحسب، بل بفراغات اجتماعية كذلك. فهناك الكثير من الناس الذين سيعتبرون أن المشاركة فى الدور الاجتماعي الخاص للسائح فى جزئية من دور المهاجر، أمراً يبعث على القلق، لذا يدور جدل شديد وعاصف للحول دون وجود مناطق التقاء أو تماس بينهما.

لكن اللقاء العارض بين الهجرة والسياحة كما هو الحال فى لوس كريتيانوس من شأنه أن ينم عما هو أكثر بكثير مما يمكن أن نقربه، فيما يختص بتجارب الاتصال اليومية؛ فهناك

كثير من الناس مازالوا يتعرضون للإجبار لعدة أسباب كي ينتقلوا أو يسافروا أو ليتأرجحوا بين محل العمل ومحل السكن، وتوافر رحلات الطيران الرخيصة والطرق السريعة والقطارات فائقة السرعة، والتليفون المحمول وشبكة الإنترنت وأجهزة الكمبيوتر المحمولة، كلها أمور تتيح البنية الأساسية المطلوبة لهذا التحرك.

حتى ولو كان بعض الأصدقاء قد أبدوا رد فعل متحفظ فى البداية فى مواجهة تقاريرنا حول الهجرة والسياحة، فإن أغلبهم استطاع أن يجمع التجارب العديدة من حياتهم الخاصة دائمة التنقل. ولاسيما هؤلاء الناس الذين يتحركون ويسافرون باستمرار. وحيث إننا نعرف فى المقام الأول أناساً يسافرون كثيراً مثلنا بسبب مسائل الثقافة والعلم، وهكذا تنشأ صورة هائلة للتنقل والحركة.

تلك الصورة لم تكن لتبدو هكذا منذ عشرين (٢٠) عاماً، ولم يكن الكثير من الناس ليشاهدونها من منظورات خاصة هكذا، فإنه فى تلك الأثناء أصبح البحث عن عمل يشمل كذلك وبشكل آلي البحث عن محاور حياة جديدة، وعلى خلاف زمن المجتمعات الصناعية المستقرة، أصبحت العمالة اليوم تتبع التحركات السريعة لرأس المال، حيث إن ديناميكية العولمة الاقتصادية التي لم يعد من الممكن كبح جماحها بعد نهاية الحرب الباردة ترغم الأجزاء النامية من الشعوب على أن يعيشوا حياة أشبه بحياة البدو الرُحل، بعضهم يستمتع بحالة التنقل الدائم تلك، حيث إنهم يكتشفون ميزة الانضمام إلى صفوة التنقل الجديدة أثناء انسلاخهم الخاص. لكن البعض الآخر يعانى من ضغط الاضطرار إلى التنقل. ويقبلون رغم ذلك السير فى تلك الطرق البعيدة من أجل إدراك فرصهم فى سوق العمل وغالباً ما يكون العناء يومياً.

هل يمكن أن تكون الرحلة إلى العمل بمثابة تجربة سياحية؟ فى التسعينيات من القرن الماضي ظهر فى النصوص التي كانت تتناول العلاقة بين الاقتصاد والتنقل فى دول أوربا الشرقية أو فى تركيا، ظهر مصطلح "سياحة التسوق" ولم تكن سياحة التسوق المعروفة لدينا هي

المعنية، تلك التي يحاول اتحادات التجارة القطاعي وتسويق المدن في غرب أوروبا أن يدعموها. ولكن المقصود هنا كان ذلك الشكل الجديد للسفر من سوق إلى سوق، من بازار إلى بازار، والناس تحمل أجنحة البيع الخاصة وبضاعتها المتنقلة، ليقطعوا مسافات بعيدة فى الغالب، ويستخدموا القطار لذلك، وهكذا يُصبح تنقل الأفراد والبضائع مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً في تلك التحركات التي يطلق عليه أيضاً مصطلح "تجارة الشنطة" أو "تجارة – السياح". ولم يكن الرجال فقط هم الذين يتوجهون فى حركة متأرجحة بين وارسو وبرلين وكييف واسطنبول، بل النساء فى المقام الأول.

ولا يجب أن نرى فى الأمر مجالاً للسخرية، حين يرتبط بذلك أيضاً مصطلح "سياحة"، حيث إن تاجرات الشنطة هؤلاء استخدمن البنية الأساسية من القطارات والمحطات وأماكن المبيت الرخيصة، التى يمكن أن نطلق عليها سياحية حتى ولو كان الأمر يندرج ضمن سياحة أقل القليل. وفى الوقت ذاته يفتح مصطلح السياحة هذا بعداً ذاتياً: حيث إن حالة التنقل تلك في الشكل غير الرسمي الاقتصادي لأوروبا يمكن أن تبدو لهؤلاء المسافرين بمثابة اكتساب للاستقلالية.

كذلك تتجلى الاختلافات بين المهاجرين والسياح بشكل واضح عند حاجز أمواج لوس كريتيانوس، حيث لا يستطيع السياح ممن يقضون إجازاتهم أن يروا هؤلاء اللاجئين سوى بوصفهم ضحايا الموازنة لليبراليتهم الجديدة، الذات الملعونة بالانتقال، لكن ليس كل موتيفة سياحية تتفق بدورها مع المهاجرين الوافدين. أما كل من يرغب فى ألا يرى فى الهجرة سوى الاستغناء والتنازل، فإنه يصنع من المهاجرين ضحايا. ومن يرى فى السياح معتنقي مذهب اللذة فحسب، فهو يغفل عناء السفر والدنو من طريقة حياة الهجرة، كذلك فإنه من الضروري الربط بين الهجرة والسياحة، وكلما دققنا فى المصطلحين "مهاجر" و"سائح"، كلما ازدادت الشكوك حولهما.

ونحن نقترح أن نتحدث عن الهجرة والسياحة بشكل مغاير عن الحديث المعتاد، ولهذا الغرض ينبغي ألا تدل مسميات "مهاجر" و"سائح" على أشخاص حقيقيين فحسب، بل على أوضاع اجتماعية داخل مجتمع متحرك، حيث يمكنها المساعدة على وصف وتحليل المجتمع المتحرك بوصفها "أنماطاً"، بوصفها شخوصاً – داخل تصور.

ويهدف هذا الاستخدام الجديد والمبتكر للمفاهيم إلى إعادة النظر فى التصورات التي تشيع حول الهجرة والسياحة، وإذا ما تم الإعلان عن أن المهاجرين أصبحوا يمثلون مشكلة من مشاكل الرعاية الاجتماعية أو تهديداً، أو أنهم يتسببون فى فقدان العولمة، أو أنهم سيتحولون إلى أصوليين إسلاميين، فإن ذلك لن يكون بالأمر وخيم العواقب من الناحية السياسية فحسب، فمن شأن ذلك أن يعوق رؤية: تنوع أشكال السلوك وطرق العيش وقوة الهجرة القادرة على تغيير المجتمعات.

إن الجدل الدائر حول السؤال عما إذا كانت ألمانيا دولة تستقبل حركة الهجرة أم لا هو بمثابة إرث هذه العجرفة السياسية والثقافية، كما يتشابه الأمر بالنسبة للسياحة. فقد أحصت منظمة السياحة العالمية (WTO) أكثر من ثمانمائة مليون حالة وصول دولية، كما يقوم حوالي نصف الألمان – بحسب قول المنظمة – برحلة أو أكثر لقضاء إجازات لا تقل عن خمسة أيام فى السنة الواحدة خارج البلاد. ولكن على الرغم من أن الأمر يتعلق بأحد أكبر أفرع الاقتصاد على مستوى العالم، فإن نشاط الرحلات المدهش هذا يكاد لا يدركه أحد على أنه عامل مغير للمجتمع، فى حين أن التصورات الثقافية السائدة حول كيفية قضاء حياة رغدة وكذلك عن حقوق المواطن السياسية كلها أمور يزيد تأثير السياحة عليها باستمرار.

وحينما قررنا البحث فى مسألة التنقل لأغراض الهجرة أو السياحة، فإن الأمر كان يتعلق منذ البداية فى الأساس بعدم إعداد الهجرة والسياحة بمثابة قوى منعزلة، بل التعامل معهما داخل إطار علاقتيهما بعضهما ببعض، بوصفهما "قوة فرار" صماء. وكان أكثر ما يثير اهتمامنا هو ما

تعنيه الهجرة والسياحة من الناحية المادية، أي فى المجال الطبيعي. كيف تبدو إذاً الأماكن التي يوجد فيها كلاهما؟ وما هي أنواع العمارة التي تنشأ هناك؟ كيف تتغير المدن والطبيعة بأكملها تحت ضغط الهجرة والسياحة؟

لذا فقد سافرنا، زرنا إسبانيا والمغرب، نظراً لأن الحركة المتبادلة والمتقاطعة بين المهاجرين والسياح بكلا البلدين لها قصة طويلة كانت لها تداعيات درامية فى السنوات الأخيرة، إما فى مضيق جبل طارق أو فى جزر الكنارى. كما سافرنا إلى إيطاليا وألبانيا، حيث سادت هناك بين ساحلي أبولينس ومنطقة تيرانا الكبرى علاقة تبادل بين الاستعمار والهجرة والسياحة، دخلت منعطفاً جديداً منذ التسعينيات. وحضورنا كذلك فى دول ما كان يطلق عليها يوغوسلافيا سابقاً، بدافع البحث فى قصة الإشغالات المتنوعة للفنادق فى إطار الحروب التي دارت فى التسعينيات فى بادئ الأمر، ولكن تطور الأمر صوب البحث فى تواصل تأثير حركات الانتقال التي أجبر عليها السكان بسبب الحرب، ولاسيما اليوم. كذلك انصب اهتمامنا على إسرائيل والمناطق الفلسطينية المحتلة بسبب الطابع المعملي لهذه المنطقة التي يشكل فيها التحكم فى حركة الانتقال الوسيلة الحاسمة للسلطة، كما تعد الطبيعة السياحية جنوبي فرنسا، ولاسيما منطقة لانجويدو – روسيليون، تعد بمثابة معمل اختبار آخر، حيث سجلت نموذجاً هائلاً من حياة أوقات الفراغ بين الستينيات والسبعينيات. وقمنا فضلاً عن ذلك بمراقبة مدن بيلباو، وفينيسيا، وبرلين، وباريس، وهامبورج، ومارسيليا أو برشلونة، لنرى كيفية تحول مراكز المدن إلى مراكز ترفيه حضرية من أجل مواطن جديد، ألا وهو السائح.

ونحن نواصل بهذا الكتاب ما بدأناه بكتبنا السابقة:

"*Mainstream der Minderheiten. Pop der Kontrollgesellschaft*" والذى صدر عام ١٩٩٦" وكذلك كتاب " "*Krieg als Massenkultr in 21 Iahrhundert*" الصادر فى ٢٠٠٢. وهي بمثابة القصة والنظرية للموضوع فى الليبرالية الجديدة، حيث نجد روابط واضحة ومتنوعة بين

انتقالات حرب ثقافة الحشود التي توظف الأفراد عسكرياً ووسطياً وبين انتقالات الهجرة وسياحة الأعداد الغفيرة. ويمكن التعرف على تلك الروابط دائماً عندما تتسبب الحروب الجديـدة التـي تستهدف المدنيين، فى هجرات جماعية وتؤدي إلى نشأة معسكرات لاجئين، أو عنـدما تـصبح جنات السياحة أهدافاً لهجمات إرهابية.

وهكذا تصبح علاقات الأقليات بالأغلبية متغيرة بدورها داخل المجتمعات المتحركة، كما تنشأ تجمعات جديدة وجماعات جديدة تشترك فى أصول الحياة أو فى الأقدار، وذلك فى أمـاكن الإقامة المؤقتة (الترانزيت)، وعلى طرق الهجرة أو السياحة بل إن الأفراد يتحولون أكثر وأكثر ليصبحوا عناصر للتنقل، فالناس تتحرك فى شبكات عابرة للمحليات. كما أن ارتباطاتهم بالمكان تتوقف على الإمكانيات التي يتيحها المكان لتنفيذ المشروعات الخاصة.

ولاشك أن هذه التغيرات تفرض حتماً تغيرات اجتماعية بعدها، لكن الجمهور يتفاعل مع ذلك ببطء فحسب. وقد صاحب إصدار هذا الكتاب الكثير من الجدل الشديد حول الثقافة الرئيسية والاندماج، لكن النظرة إلى العلاقات الحقيقية داخل أحد المجتمعات المتحركة أوالمتنقلة لا يجعل هذا الجدل يبدو إقليمياً محدوداً فحسب، بل مخالفاً للمنطق، حيث يتزايـد عـدد النـاس الـذين يرتبطون بمحال سكنهم، تلك العلاقة التي تتخذ طابعاً خاصاً، وبشكل متزايد من خـلال التنقـل والقومية. إذاً يجب أن يُعتد بهذه الظروف، لأن أحلام تكوين المجتمعات المندمجة قد انتهت منذ زمن بعيد، وكلما قل إدراك النقاش لحقيقة حركة التنقل، كلما ازداد مصطلح الاندماج غرابةً.

كولوينا / برلين فى يونيو ٢٠٠٦

توم هولرت/ مارك تركيسيديس

(......)

(٢) أماكن الإقامة المؤقتة

قرية أكواخ للإقامة المؤقتة:

ظلت مدينة سيساك لعقود طويلة هي قلعة الصناعة فى كرواتيا، الجمهوريـــة الجزئيـــة اليوغوسلافية، حيث كانت مصانع الحديد الكائنة فى الأكواخ ومعامل التكرير تقوم بالإنتاج هنا. وهكذا نما تعداد السكان فى فترة قصيرة، لكن المدينة لا تبعد كثيراً عن منتزه لونجسكو بولجى، وهي حديقة طبيعية كبرى مليئة بالمناطق الرطبة، ولا تستغرق السفرة منها إلى زغرب أكثر من ساعة بالسيارة. ومازال البعض يجدون حتى اليوم بعض العملات من عـــصر الإمبراطوريـــة الرومانية على ضفاف نهر السافا، وهو أحد الأنهار الثلاثة التي تتلاقى فـــى تلـــك الأراضـــي المنبسطة. أما الآن حيث أصيبت المدينة بركود اقتصادي من جراء حرب التسعينيات ونهايـــة المشروع الاشتراكي، فلا يجب أن ننسى أن سيساك كانت قديماً هي ملتقى البلقان الغربى.

أما قرية شاشنا جريدا التي لا تبعد كثيراً عن سيساك فهى تقع فى أقصى أطراف البلاد، بدرجة لا يمكن لأحد أن يتخيلها. بل تكاد تلك القرية ألا تكون موجودة ولكن يظل اسمها يـــربط بعض المنازل المتناثرة والمزارع، لكن قرية شاشنا جريدا تشير فى المقام الأول وفـــضلاً عـــن ذلك إلى بقعة أرض يلتقي عليها مختلف الفاعلين فى حركة الانتقال فى ظل الحاضـــر وعلـــى خلفىة التاريخ الماضى.

كان الجو شديد الحرارة فى ذلك اليوم من شهر سبتمبر (أيلول) عـــام ٢٠٠٥ وكانـــت الشمس تلتهب فوق الغبار. وكانت مدينة سيساك التي لا تبعد سوى بعض الكيلومترات تبدو من الصعب الوصول إليها، وكانت تتراءى أمام الأعين بعض آثار للغابة والحقول، وفى منتـــصف قطع ديكور الطبيعة تلك نجد حوالي عشرين (٢٠) كوخاً خشبياً كائنة بلا أى مسحة جمـــال أو هوية ولكنها مصطفة فى شكل دائري منتظم. وكان كل كوخ يبدو وكأنه كان مطلياً ذات يـــوم بلون زاه، أما الآن فقد بدت ألوان الأحمر والأزرق والأخضر والأصفر باهتـــة، ممـــا أعطـــى

للمشهد انطباعاً بأنها كانت قد طليت بألوان الباستيل الطباشيرية. وكانت إحدى منظمات الإغاثة السويدية قد شهدت هذه القرية النموذجية عام ١٩٩٤، مما ساهم فى حل المشاكل التـي نـشأت بسبب تشريد أعداد هائلة بسبب الحروب. وهكذا تم نقل أشخاص إلى هذا المكان هم مـن ذوي الأصول العائلية الكرواتية، ممن اضطروا للفرار فى منتصف التسعينيات من البوسنة ومن بعدها أيضاً من كوسوفو، حيث كان كل شخص فى يوغوسلافيا المفككة مطالباً منذ اندلاع الحرب بأن يتصرف بحسب تعريف الهويات العرفى الذي استدعته الظروف فجأة، مما اضـطر الملايـين الذين لم يتمكنوا من المشاركة فى الصراع ولم يرغبوا فى ذلك إلى مغادرة منـازلهم حتـى لا يتعرضوا للقتل او الأسر أو الاغتصاب.

وفى تلال الأراضي الجرداء الكائنة بين القرية والمدينة تقع مستوطنة شاشـنا جريـدا الصغيرة، التي كانت مخططاتها وُضِعت لتضم مائة شخص دون أدنى رابطة بالحياة الاجتماعية فى المحيط القريب منها، فقد كنت الطرق نائية بينما لا توجد مركبات أو سـيارات تـصطحب الركاب، لكن ذلك الموقع المنعزل يعد مؤهلاً أساسياً لأماكن الطبيعة الغريبة والمزعجة مثل تلك التى فى الأساطير.

ويبدو أن المهندسين المعماريين الذين وضعوا تصميمات هذه المباني سـابقة التجهيـز كانوا يفكرون فى بناء أماكن لقضاء الإجازات أو فى معسكرات تخييم، حيث إن التقسيم الفراغي لتلك الأبنية المركبة من وحدات منتجة بشكل صناعي كان يستند على تصميمات نصف دائريـة الشكل لمدن مثالية، مثل تلك المعروفة فى نظريات المدن الفاضلة فى عصر التنـوير، لتكـون نموذجاً لتخطيط المستوطنات الحديثة. ويربط طريق دائري الحلقة الخارجية للأكواخ التي يضم كل منها رقماً وباباً ونافذتين وعشرين متراً مربعاً للسكنى ووصلة كهرباء. كمـا يوجـد كـوخ مخصص لمشاهدة التليفزيون، وآخر مكتوب عليه "صالة الرياضة"، وترى الحشائش والأشجار وقد نمت بين الأبنية كما تمتد حبال الغسيل بينها.

ولا يلاحظ أحد فى تلك المستوطنات المؤقتة أنها تندرج ضمن شبكة الملاجئ الانتقالية، التي يتم منها توجيه حركة الأشخاص فى دهاليز الاتحاد الأوروبى، وكذلك فى داخل الاتحاد الأوروبى وعبره، كما يتم التحكم فى تلك الحركة وإداراتها. وكانت تلك المنازل الظريفة فى شاشنا جريدا عند إنشائها قبل أحد عشر عاماً تنتمي إلى سلسلة من أماكن الإقامة المؤقتة التي أُقيمت على أرض دولة كرواتيا المؤسسة حديثاً مع بداية الحرب عام ١٩٩١. وهكذا أصبحت شاشنا جريدا جزءاً من جغرافيا الجماعات الانتقالية فى كرواتيا والمنطقة بأكملها إلى جانب زابرودى وسبانسكو الكائنتين على أطراف مدينة زغرب أو جازينسي الكائنة فى سلافونيا الشرقية، التي أصبحت أكبر مأوى جماعى للاجئين والأشخاص المبعدين داخلياً؛ حيث تضم أحياناً أكثر من ستة آلاف نزيل.

إن كثيراً من المعسكرات التي أنشأتها وأدارتها منظمات إغاثة مثل الصليب الأحمر أو المفوضية العليا لشئون اللاجئين التابعة للأمم المتحدة فى سنوات الصراع الصربي – الكرواتي، وحرب البوسنة فى كوسوفو، كثير منها قد تفكك فى تلك الأثناء، لكن بعض الملاجئ الكبرى أصبحت متحركة بمعنى الكلمة، وذلك بتفككها ونقلها وتشييدها فى أماكن أخرى.(١)

ويمكنك حتى اليوم اكتشاف استخدامات جديدة للمربعات السكنية المؤقتة للمجتمعات الدولية؛ حيث ترى حاويات السكن والنقل التي تحمل علامات الأمم المتحدة وهي تستخدم فى رصف الشوارع لتتحول إلى أكشاك أو نضد فى الأسواق.

كما ظلت بعض المعسكرات فى أماكنها ولكنها أصبحت تؤدي وظائف أخرى مثل شاشنا جريدا؛ حيث لم يعد ذلك المعسكر منذ عام ٢٠٠٥ يأوي أي لاجئين أو مبعدين داخلياً من يوغوسلافيا سابقاً، بل مهاجرين ومهاجرات بشكل مؤقت، ممن يقيمون فى كرواتيا بطريقة غير شرعية، وهم إما تقدموا بطلبات لجوء أو أنهم لا يمكن إبعادهم؛ لأنهم لا يحملون أوراق إثبات هوية. قدم كثير منهم من البوسنة والهرسك. وحتى عام ٢٠٠٢ كانت بعض الأفراد تأتي إلى

تركيا أو تونس أو بنجلاديش أو الصين حيث كانوا يفضلون السفر إلى البوسنة بوصفهم سـياحاً عبر مطار سراييفو. وهكذا كانوا يحظون بتسهيلات للحصول على التأشيرة تساعدهم منظمـات تهريب؛ ليتوجهوا من المطار مباشرة أو بعد إقامة قصيرة فى أحد الفنادق الرخيصة على وسط مدينة سراييفو القديمة ومنها إلى كرواتيا ثم إلـى سـلوفينيا أو النمـسا، أقـرب دول الاتحـاد الأوروبي. (٢)

وفى تلك الأثناء ازدادت الرقابة على مطار سراييفو كذلك؛ حيث أصـبحت الـسلطات البوسنية ترد الكثير من المهاجرين "غير الشرعيين" القـادمين إليهـا دون انتظـار إجـراءات التقاضي. ورغم ذلك يحاول سنوياً ما بين عشرة آلاف وعشرين ألف شخص المرور على ذلك الطريق للنفاذ إلى كرواتيا؛ مما أدى إلى إبرام اتفاقية استعادة مهاجرين بين كرواتيـا والبوسـنة والهرسك. وتسمح تلك الاتفاقية للسلطات الكرواتية بإعادة المهاجرين وطـالبي حـق اللجـوء للقادمين عبر البوسنة إليها مباشرة.

ويبدو أن تلك الإمكانية لم تُطبق على نزلاء شاشنا جريدا، حيث يجلس الرجال والنساء فى مداخل الأكواخ باهتة الألوان، وهم يراقبون الغسيل وهو يجف ويحيكون الخطط حول كيفية مواصلة السير وتوقيته. وتحكي مديرة هذه الضيعة وتقول: إنه فى أحد الأيام فى فصل الصيف من عام ٢٠٠٥ كان هناك اثنان وعشرون شخصاً يقيمون بها. كانت هي مشغولة مع مبعـوثي الصليب الأحمر الكروات وطلبت منهم ألا يتحدثون إلى أحد ولا يلتقط لهم أحد صوراً. وكانـت تلك تعليمات بفرض حماية المهاجرين كما يحب البعض أن يعتقد، وكلها تعليمات وصفت كذلك لصالح الدولة التي تمنح الإقامة المؤقتة لهؤلاء الأشخاص القادمين من مولدوفيا أو رومانيـا أو تركيا أو العراق أو الصين، على حد القول، ولاسيما فى الأعماق المنبسطة لتلك البقعة الجدباء. فالأفراد غير الشرعيين يجب أن يظلوا غير مرئيين. وهم لم يطل بهم المقام هنا، رغم العنايـة المنتظمة والإشراف النفسي بين الحين والآخر وعروض الألعاب. كما تؤكد المديرة أن أغلـب المقيمين بالمكان يرحلون بعد قضاء بعض الليالي القليلة به دون الحصول على تصريح، ولكـن

دون أن يكون هناك سند أو وسيلة لمنعهم من ذلك؛ حيث إن قرية الأكواخ لا تحظى بحراســـة. وطالما أن عملية انضمام كرواتيا إلى الاتحاد الأوروبي لم تحسم بعد فيرغب غالبية الأشـــخاص ألا تنتهي الرحلة فى كرواتيا؛ بل فى إحدى الدول الأعضاء بالاتحاد الأوروبي.

الانتظار فى نُزل يجيفو:

تشارك المفوضية العليا لشئون اللاجئين التابعة للأمم المتحدة UNHCR فى إعالة قرية شاشنا جريدا، إلى جانب الصليب الأحمر الذي يشرف عليها ويديرها. لكن مسئولية تلك المحطة البينية للمسافرين غير المرغوب فىهم تقع على عاتق وزارة الداخلية فى كرواتيا. وقد تزايـــدت أعداد المهاجرين وطالبي حق اللجوء الذين يمرون بالبلاد منذ أن دخـــل قـــانون اللجـــوء الأول لكرواتيا حيز التنفيذ، وبعد أن أصبحت سلوفينيا، إحدى الدول المستقلة عن يوغوسلافيا ســـابقاً، عضواً بالاتحاد الأوروبي، ولاسيما قبل ذلك القانون بفترة وجيزة. حيث تقدم حـــوالي مائتـــان وثلاثة (٢٠٣) شخصاً بطلبات لجوء فى الفترة من ٢٠٠٠ و ٢٠٠٣ ولم يتم الموافقة علـــى أي منها. فلا عجب إذاً أن تتناقص أعداد طلبات حق اللجوء فى مقابل زيادة هؤلاء المهاجرين "غير الشرعيين" الذين يقيمون إقامة مؤقتة، والذين لم تُعلن بشأنهم أية إحصاءات جديدة رغم ذلك.

يجب أن تبقى قرية شاشنا جريدا مقراً لمن لا يحملون أوراق إثبات هوية، أو يتمتعـــون بوضعية اللاجئين أو لمن ليس لديهم تصريح بالإقامة، حتى يتم افتتاح معسكر جديد فى ثكنـــات الجيش القديمة لمستوبيشكا زلاتينا الكائنة بالقرب من أُوروسلافى القريب من حـــدود ســـولفينيا، حيث ترغب كرواتيا أن تخطو خطوة تقترب بها نحو متطلبات عضوية الاتحاد الأوروبـــي[٣]، مستغلة مركز استقبال طالبي حق اللجوء هذا reception center.

من شأن "مركز استقبال" مثل هذا أن يهدد وجود مكان آخر، يمر به الناس فى طـــريقهم إلى زغرب، فبخلاف مستوطنات الأكواخ المؤقتة والخافية عن الأنظار يوجد معـــسكر الإيـــواء المغلق هذا فى يجيفو على الطريق السريع المؤدي إلى بلجراد مباشرة، عند محطة بنزين ملحق

بها استراحة صغيرة. مما يعني أن كل شخص يتوقف هنا للتزود بالوقود أو لقضاء حاجتـــه أو لشراء شيء يأكله فإنه يمر على بعد أمتار قليلة بذلك السجن، الذي يضم الناس الـــذين قُطعــت رحلاتهم بقوة الشرطة.

وكان هذا المعسكر يستخدم فى السابق بمثابة النزل. وهكذا تتضح سخرية تغيير الفرص من استخدامه جيداً؛ حيث إن النزل يختلف عن الفندق، على حد قول عالمة الحضارات ميغـــان موريس Meaghan Morris، وحيث إن النزل ينفى نوعية ما هو محلي وتـــاريخي لـــصالح "الحركة والسرعة والدوران الدائم"(٤) لكن تلك النصب التذكارية للدوران الدائم نفسها تفقد أحياناً الغرض منها؛ حيث كتب عالم الاجتماع الحضارى جاركو بـــاييتش(٥) Zarko Paic يقـــول إن الأبنية المسطحة لنزل يجيفو والمشيدة على طراز الحدائق المتأخرة، والتي كانت تعد ملتقى لشبه عالم الترانزيت فى يوغوسلافيا، لمن هم فى طريقهم من هامبورج إلى اسطنبول، تحولت فـــى التسعينيات إلى مكان دون وظيفة ودون منظورات، وفى نهاية عقد الحرب قررت وزارة داخلية كرواتيا جلب المهاجرين غير الشرعيين الذين أمسكت بهم قـــوات الـــشرطة وذوي الأصـــول الكردية، الصينية، الأفغانية، الإيرانية، العراقية، التركية المولديفية أو الرومانية إلى هنا؛ ليعيشوا فى ذلك النزل السابق حياة صعبة تحت حراسة مشددة يحيط بهم سياج عال، وتمر بهـــم الأيـــام والأسابيع حتى يُفصل فى قضاياهم.

ذات يوم حار من شهر سبتمبر (أيلول) عام ٢٠٠٥ كان هناك حـــوالي خمـــسين (٥٠) نزيلاً يجلسون فى الشرفة المطلة على الطريق السريع. ولكن بعد وضع السياج علـــى منـــصة المشاهدة التي كانت مفتوحة فى الأساس، والتي يمكن منها مراقبة حركة المرور العاتيـــة فـــى الخارج. وهكذا أصبحت الشرفة تشبه القفص، ورغم أن المنطقة مغلقة على نطاق واســـع وأن تصاريح الزيارة بها ممنوعة، مما يجعل من لا يمنح سوى صورة تقريبية عن الموقف لمن يراه من الخارج، فإن الأمر على بعد ثلاثين متراً يبدو كما لو أنك تشاهد مجموعة مـــن المـــسافرين الذين يحاولون قتل فترة الإقامة المؤقتة الممتدة تحت أشعة الشمس الملتهبة.

الهوامش

---

[1]) حدث ذلك على سبيل المثال بأحد المعسكرات التي كان يديرها الصليب الأحمر الدنماركي في كوتينا، حيث تم تفكيكـــه إلى أجزاء ونقل بعضها إلى قرية أيلوك في سلافونيا الشرقية لزيادة طاقة للاستيعاب من أجل اللاجئين الأكبـــر ســـنا. لمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع نرجو الاطلاع على التقارير التالية للصليب الأحمر الدولي والكرواتي تحت عنوان:

Croatia: Assistance to Refugees, Displaced Persons and Returness, Programme, no 01.36/98.

Peter Rees – Glidea / Renny Nancholas (ICRC): Croatia: Assistance to Refugees, Displaced Persons and Returness, appeal no 01.36/98.

[2]) أنظر كتاب Human Smugglers and Social Networks: Lejla Mavris

Transit Migration through the states of former Yugoslavia, in UNHCR – New Issues in Refugee Research, Working Paper, No. 72, December 2002.

[3]) أنظر: وفد اللجنة الأوروبية إلى جمهورية كرواتيا، دليل الاتحاد الأوروبي لسياسة اللجوء، ٢٠٠٤.

Delegation of the European Commission to the Republic of Croatia, EU Asylum Policy Giude, 2004, http://www.delhrv.cec.eu.int/en/eu_and_country/asylum_policy.htm.

[4]) Meaghan Morris: At Henry Park Motel, in: Cultural Studies Bd. 2, Nr.1, 1988, S.1-47, hier:3.

في نزل هنري باركس: في مجلة: دراسات ثقافية، المجلد الثاني، رقم ١، ١٩٨٨ ص ١- ٤٧، هنا ص ٣.

[5]) Zarko Paic: Prisoners of a Global Paranoia, The Jezevo Motel qua the End of the European Grand Narrative, in: Gazet;art. Magazine of the South – East European Contemparary Art Network, No. 1 Dezamber 2002, S. 8f, hier: 8

انظر كذلك الإصدار الأول في الطبعة الخاصة لمجلة زغرب للتداخل الثقافي لعام ٢٠٠٢ والتي صدرت بالاشـــتراك مـــع مشروع نُزُل Jezevo، ذلك المـــشروع الفنـــي حـــول "الهجـــرة غيـــر المـــشروعة". Art_e_fact, Issue 1, 2002: http://artefact.mi2.hr